الشاب الدّاخِل

استمر الخلفاء يحكمون القسم الأعظم من المملكة الإسلامية ستة قـرون، وكان هذا الحكم فى أول الأمر قويًّا واسـع السـلطة، فكان الخليفة يعين أمراء الولايات ويعزلهم إن شاء ومتى شاء من إسبانيا إلى حدود الهند.

ولكن المملكة وقد امتدت رقعتها كانت أوسـع من أن تجتمع أمدًا طويلا حول محور واحد، لذلك أخذ عدد من الأمراء فى الفينة بعد الفينة، يعمل مسـتقلا مع إظهار الولاء الأكيد للخليفة، ومنحه كل ما يجب من تشـريف وتبجيل إلا الطاعة، ودار الزمن دوراته ففقد الخلفاء هذا التشـريف وذلك التبجيل، ونبتت سلالات من الأمراء انتحلت مذاهب دينية مبتدعة، فجحدت سـلطة الخليفة الدينية وعدته وعدت أبناءه من الغاصبين، ثم جاء زمن كانت سلطة الخلفاء الزمنية فيه أشبه بسلطة البابا برومة فى الضعف والخور، حتى إن حراسـهم المرتزقين الذين استأجروهم لحمايتهم من أعدائهم كانوا يحبسـونهم أحيانًا فى قصورهم. وقد وقع شـىء من ذلك بعد نحو ثلاثمائة سـنة من ابتداء الخلافة، أما فيما بعد ذلك، فكان الخلفاء رمزًا قليل القيمة، يلعب به كبار أمراء المملكة كيف شاءوا، وكانوا لا ينالون شيئًا من الحفاوة إلا يوم توليتهم، ثم محا المغول فى القرن

الثالث عشر الخلافة بآسيا، ولم يعد للمسلمين اليوم خليفة بالمعنى الصحيح، على الرغم من تمسك سلطان تركيا بهذا اللقب[1].

وكانت الأندلس أول ولاية نفضت عنها سلطة الخليفة، ولكى نفهم هذا يجب أن نذكر أن الخلفاء لم يتبع بعضهم بعضًا فى سلالة متصلة الوراثة، فبعد الخلفاء الراشدين: «أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى» الذين نالوا الخلافة بقليل أو كثير من رغبة الأمة واختيارها - نصب أهل الشام معاوية خليفة بدمشق، فكان من نسله الخلفاء الأمويون، وكان عددهم أربعة عشر، حكموا من سنة ٦٦١ م / ٤١ هـ إلى سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ ثم أسقط السفاح دولتهم، فكان أول العباسيين المنسوبين إلى جدهم العباس عم النبى ﷺ. ونقل العباسيون مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد، واستمرت خلافتهم حتى أسقطها المغول سنة ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ.

وكان عبد الرحمن الداخل من الأسرة الأموية المغلوبة التى طاردها العباسيون واستأصلوا شأفة أبنائها، وتتبعوهم فى كل نواحى الأرض يذبحونهم بلا رحمة ولا هوادة، ففر عبد الرحمن[2] كما فر غيره، ولكنه كان سعيد الطالع، إذ وصل إلى شواطئ الفرات سالمًا بعد جهد وأين، وبينما كان ذات يوم جالسا فى خيمته يرقب

---

(١) المؤلف يكتب حوالى سنة ١٨٨٨ م / ١٣٠٥ هـ.

(٢) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ولد سنة ١١٣ هـ بدير حنا من أعمال دمشق.

ابنـــه الصغير وهو يلعـــب فى فنائها، جـــرى إليه الصبـــى خائفًا مذعورًا، فخرج عبد الرحمن ليتعرف سبب خوفه، فرأى القرية فى اضطراب، ورأى العلم العباسى الأسود يرفرف فى الأفق، فاجتذب ابنه فى عجلة وفر من القرية، ووصل إلى النهر فقذف بنفســه ومن معه فيه، واقترب الأعداء إلى شـــاطئ النهر وصاحوا بهم أن لا بأس عليكم فلن يصيبكم منا أذى، فصدقهم أخ له صغير كان معه وكان قد أجهدته الســـباحة، فذهب إليهم فاحتزوا رأسه فى التو والحين، ولكن عبد الرحمن طفق يجاهد حاملا ابنه ووراءه خادمه بدر حتى وصل إلى الشـــاطئ الآخر، فلما وضعت أقدامهم على اليابسة أخذوا يســـيرون ليلا ونهارًا حتـــى بلغوا إفريقية حيـــث تبعه بقية أهله هناك، وحيث وجد ذلـــك الناجى الوحيد من الأمراء الأمويين وقتًا للتفكير فيما يكون فى غده.

كانت ســـنه إحدى وعشـــرين ســـنة، وكان كبير الأمل طموحًا، وكان يتحلى إلى ســـداد الـــرأى بامتداد القامة، والوســـامة، والقوة والشـــجاعة، ويضيف بعض مؤرخى العـــرب إلى هذه الصفات ما لا نحب أن يتصف به بطلنا، كالعور، والخشم[1]. وكان قومه يتحينون له ملكًا بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك[2]، وهو الآن على الرغم

---

(١) الخشم: فقدان حاسة الشم.

(٢) فى نفح الطيب: دخل عبد الرحمن يومًا على جده هشام وعنده أخوه مسلمة، وكان عبـــد الرحمـــن صبيًا فأمر هشـــام أن ينحى عنه، فقال له مســـلمة: دعه يا أمير المؤمنين هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوص به خيرًا.

مما أصاب قومه من الهلاك، قوى العزيمة غير مستكين. وقد اتجه نظره إلى إفريقية أولا، لأنه رأى أن قوة العباسيين لم تدع له فرصة فى الشرق[1]، فلما بلغها بقى سنين هائمًا على سواحل البربر، تحقق فى خلالها أنه لا يستطيع التغلب على أمير إفريقية[2]، وأن ثوار البربر فى المغرب لن يتخلوا عن الاستقلال الجديد الذى نالوه ليحظوا بالشرف الأجوف بتولية أحد الأمويين عليهم. عند ذلك حول نظره إلى الأندلس؛ حيث كان الصراع الدائم بين القبائل والعشائر المتنافسة جديرًا بأن يفتح بابًا لعبقرى مثله، يؤيده النسب الأموى وتزكيه الهمة العالية، لذلك أرسل خادمه إلى زعماء حزب الشام بإسبانيا، وكان بينهم كثير من موالى الأمويين الذين يوجب عليهم الشرف العربى نصر من ينتمى إلى ساداتهم الأولين، ورأى بدر من هؤلاء الزعماء رغبة فى استقبال الأمير الشاب بعد أن فاوضوا القبائل المعادية من اليمن فوعدت بنصرته، عندئذ عاد بدر إلى إفريقية.

وكان عبد الرحمن يصلى على سيف البحر حينما رأى السفينة التى تحمل خير الأخبار مقبلة إليه، وكان يميل إلى الأخذ بالفأل

---

(١) ولأن أخواله كانوا من برابرة طرابلس.

(٢) هو عبد الرحمن بن حبيب الذى فر من الأندلس بعد دخول ابن الخطار، ووصل إلى المغرب وانتزع لنفسه إمارة به، وهو الذى قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخل إفريقية.

كجميع المشـارقة الذين طبعوا على التفاؤل والتطير، واتفق أن أول رسول أندلسى قدم مع بدر كان اسمه أبا غالب تمَّامًا. فلما عرف عبد الرحمـن اسمه صاح: «تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته» ثم نزل إلى السـفينة فأبحرت به إلى إسبانيا فى سبتمبر سنة ٧٥٥ م / ١٣٨ هـ وكان دخول هذا الناجى الفذ من بين السلالة الأموية الأندلس أشبه بصفحة من قصة عجيبة، وهو يشـبه وصول الشاب الذى ادّعى ملك إنجلترا إلى أسكتلندة سنة ١٧٤٥م.

وانتشـرخبر دخوله الأندلس انتشار النار فى الهشيم، فتزاحم عليه المناصرون القدماء للدولة الأموية يقدمون الطاعة، ووضع أبناء موالى الأمويين أنفسـهم تحت أمره، وتأثـرت قبائل اليمن التى لم تكن تشعر بانعطاف نحو الأمير الشاب، بحماسة أنصاره، فانتقلت إليها العدوى، وعقدت الخناصرعلـى البر بوعدها، وتواثقت على نصرته.

ورأى أمـير الأندلـس معظم جنوده وقد انصـرف عنه، فاضطر إلى انتظـار جيش جديد، على أن الأمطار فى هذا الفصل من السـنة جعلت القتال مسـتحيلا. فترك ذلك لعبد الرحمن متسعًا من الزمن يجمع فيه جنوده، ويدبر أمره.

بدأ الصدام شديدًا فى ربيع السنة التالية، واستقبل عبد الرحمن بحماسة وترحاب، فى أرشذونة وإشـبيلية، فأعد جيشه للهجوم على قرطبة، وزحف الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهرى لوقف

تقدمه، ولكن الوادى الكبير كان فياضًا بماء المطر، فتسابق الجيشان على كلا شاطئيه، أيهما يكون أسبق وصولا إلى قرطبة[1]، ولكن عبد الرحمن خدع يوسف بحيلة لا تليق بالأبطال، فطلب منه أن يتركه يجتاز النهر بعد أن هبط ماؤه ليعقد معه صلحًا، فلما وصل إلى الشاطئ الآخر انقض على جيش يوسف بعد أن وثق الأمير بوعده، فتغلب عليه ودخل قرطبة ظافرًا. وكان له من الهيبة والشهامة والنخوة، ما منع الجند من النهب والتخريب. وحمل نساء الأمير المهزوم وأسرته إلى مأمنها، ولم تمض السنة إلا وهو مسيطر على جميع ما احتازه المسلمون من أرض إسبانيا، وبهذا الإقدام النادر وبهمة عبد الرحمن قدر للدولة الأموية بقرطبة أن تستمر فى الحكم نحو ثلاثة قرون.

ولم يثبت أمير قرطبة الجديد فوق عرشه بغير جهاد أو نصب، فإن الذى أجلسه على العرش وذلل سبيله إليه لم يكن إلا حزبًا صغيرًا من الأحزاب الكثيرة التى اقتسمت المملكة فيما بينها، غير أن عبد الرحمن كان أكثر استعدادًا وأوسع حيلة من سواه للاحتفاظ بملكه بين هذه العناصر المضطربة المشاغبة، فإنه كان سريعًا عند الخطب، قوى العزيمة، غير متحرج إذا صمم، شديد البطش، لا يرعى إلًّا ولا ذمة، سياسيًّا داهية، أعد لكل مفاجأة عدتها، وكثيرًا ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلا هماما.

---

(١) كان يوسف بالشاطئ الأيمن الذى تقع عليه قرطبة.

ولم يستقر بعرشه طويلًا حتى اجتاز العلاء بن مغيث من إفريقية ليرفع العلم العباسي بإسبانيا، ولم ينزل برجاله في ولاية باجة حتى اتخذ له مناصرين من بين الساخطين المستعدين دائمًا للانضمام إلى من يدعوهم لغنم جديد، فحاصرعبد الرحمن شهرين في قرمونة، وكان هذا الحصار شديد الخطر، لأن كل يوم يمر فيه كان يحمل إلى الأعداء مددًا جديدًا. ولكن عبد الرحمن كان عبقريًّا، فما كاد يسمع أن الأعداء خففوا بعض التخفيف من مراقبتهم وحذرهم حتى جمع سبعمائة من أشجع أصحابه، ثم أوقد نارًا عظيمة وصاح فيهم «إننا الآن بين حالين: فإما إلى نصر مؤزر وإما إلى موت محقق» ثم ألقى بقراب سيفه في اللهب. وتأثر رجاله، فألقوا بقربهم في النار معه، معلنين أنهم لن يضعوا سيوفهم في أغمادها حتى يفك حصارهم ويصبحوا أحرارًا، ثم انطلقوا خلف قائدهم؛ وانقضوا على محاصريهم بالأسنان والأظافر، فمزق الجيش العباسي وذهب بددًا[1].

وأمر عبد الرحمن في إحدى نوبات قسوته التي شوهت من سيرته، أن توضع رءوس قوادهم في جوالق، وأن يعلق بكل أذن صك يرقم عليه اسم صاحبه، وأن يبعث بهذا الجوالق مع أحد الحجاج ليوصله إلى الخليفة المنصور نفسه، وذهب الحاج وبلغ

(١) لقي عبد الرحمن العلاء بالقرب من إشبيلية، وهزم جيشه وقبض عليه وقتله.

حضرة المنصور وسلم إليه الجوالق[1]. فلما رأى الخليفة ما به اشتد غضبه، واحتدم وجهه بالغيظ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول: «الحمد لله أن كان يفصل بيني وبين هذا الرجل بحر» وعلى الرغم من شدة ألم المنصور لفوز أمير قرطبة، لم يجد بدًّا من أن يطرى مهارته وشجاعته، حتى إنه سمى عبد الرحمن: صقر قريش، وكان يقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى الفذ في جميع شئونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته، ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بسياسته، حتى انقاد له عصيهم، وذل له أبيهُّم، فاستولى فيها على أريكته ملكًا على قضيته، قاهرًا لأعدائه، حاميًا لذماره مانعًا لحوزته، خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه ... إن ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه».

وتوالت بعد هزيمة العباسيين انتصارات للأمير الجديد، فإنه أغرى أهل طليطلة الذين امتنعوا عليه طويلا، بأن يعقدوا معه صلحًا، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم، وما كاد يصل إليه هؤلاء الرؤساء

---

(١) في نفح الطيب: وأنفذ بالجوالق تاجرًا من ثقاته وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ففعل، ووافق أن حج أبو جعفر هذا العام، فوضعه على باب سرادقه.

حتى صلبهم جميعًا، وكان رئيس اليمانية شديد الخطر، فمنحه عبد الرحمن الأمان، ثم استهواه إلى قصره وحاول أن يقتله بنفسه فلم يستطع، لأن الرجل كان قويًّا شديد الأسر، فدعا إليه بحرسه فقتلوه[1]. وبعد ذلك بقليل ثار البربر فى الشمال ثورة جامحة، فقضى عبد الرحمن عشر سنين فى كبح جماحهم وتذليل شماسهم، وكانت نار الغضب لم تخمد بعد فى قلوب اليمانية لقتل رئيسهم، فهبوا للثأر، واغتنموا غيبة الأمير فى الشمال، وكانوا يجهلون نشاط الرجل ودهاءه ومكره، فإنه بعد أن أطفأ ثورة البربر فى الشمال وأذلهم ببث الفتنة بينهم، أخذ يعمل للتفريق بين اليمانية، فخدع البربر الذين كانوا قوام جيشهم، ومناهم الأمانى، فتركوا القتال عند اشتداده، فانقض بجيوشه على اليمنيين فاستأصلهم، وقتل منهم ثلاثين ألفًا، دفنوا جميعًا فى قبر عظيم بقى الناس يزورونه مدة من الزمان، ثم تلت هذه المعركة المعاهدة المنذرة بالخطر التى عقدها شارلمان مع ثلاثة من زعماء العرب الساخطين، والتى كادت تدمر الصرح الذى بناه عبد الرحمن بعد جهد وآلام، ولكن هذه المعاهدة لم تتم، وانحل عقدها فى معارك سرقسطة، ورونسسفال من غير أن يضرب فيها الرجل الذى اجتمعوا لسحقه ضربة واحدة.

---

(١) هو أبو الصباح اليحصبى وكان قد ولاه إشبيلية، وحقد عليه عبد الرحمن ما بلغه عنه يوم هزيمة يوسف الفهرى أنه قال: يا معشر يمن؛ هل لكم إلى فتحين فى يوم؟! فقد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا. وقتل عبد الرحمن أيضًا الصميل بن حاتم سيد المضرية.

ومنذ ذلك الحين أخذ الأمير ينعم فيما يشبه السلم بثمرات جهاده وانتصاره، فقد أخضع بعزيمته الفولاذية كل العناصر المعادية له بإسبانيا، وأسقط كل زعيم صلف أصيد جرؤ على أن يستل لحربه سيفًا، وذبح قواد البربر، وأثبت غير منازع أنه سيد الموقف، ولكن ظلمًا قاسيًا ناكثًا للعهد كظلم عبد الرحمن لا بد أن يجر وراءه عقابه وآلامه، فإن الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ولكنه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم، والملك الذى ينال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف، فقد نفر الناس من الأمير الأموى بعد أن تجرعوا مرارة حكمه، وأبى الأمناء من رجال الدولة أن يدخلوا فى خدمة رجل خداع فتاك مثله، وانصرف عنه أنصاره الأولون الذين آزروه ورحبوا بمقدمه، حينما رأوا ظلمه صارخًا، وقسوته مهتوكة الأستار، ودبر له المكايد مرة بعد أخرى أهله الأقربون الذين احتموا بقصره من العباسيين، لما ظهر لهم من عسفه الذى لا يطاق، ففقدوا فى سبيل ذلك رءوسهم[1].

نبذ الناس عبد الرحمن فبقى وحيدًا محزونًا. هجره أصدقاؤه، ويئس منه أعداؤه فصبوا عليه لعناتهم، ونصب له الحبائل أهله وخدامه.

---

(١) قتل عبد الرحمن من أقاربه عبد السلام بن يزيد بن هشام، وابنى أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية والمغيرة بن الوليد بن معاوية، ونفى أخاه الوليد وخادمه بدرًا الذى ذلل له الطريق إلى الأندلس.

وقـد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسـدت طبيعته العربية السـمحة، وقد يكون قد فطر هكذا على أخلاق شرسة لا تلين، فهو الآن لا يستطيع أن يندمج كعادته في زحام شوارع قرطبة، وإذا مر بهذه الشـوارع فإنما يمر راكبًا محاطًا بحراس أقوياء من الغرباء، مشـتبهًا في كل شيء، ومتهمًا كل إنسـان، تنتابه أفكار مظلمة، وتزعجـه ذكريات الدماء، فكان له أربعون ألف حارس من مرتزقة البربـر يحمونه مـن أعدائه الذين سـحقهم تحـت قدميه، وكان إخلاص هؤلاء الحـراس المأجورين لمولاهم يعـادل بغضهم لجميع الأهلين الذين أذلهم سيدهم وألصق آنافهم بالتراب.

وقد نظم عبد الرحمن في وحدته هذه القصيدة يناجي فيها نخلة نقلها من أرض أجداده وغرسـها بالأندلس، لأنه كان يقول الشعر، وهو في أبياته يحنو على النخلة في منفاها ويقول:

تبـدت لنـا بيـن الـرُّصـافـة نخلـة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى
وطول ابتعادي عن بنيّ وعن أهلـي
نشأت بـأرض أنـت فيهـا غـريبة
فمثلك في الإقصـاء والمنتـأى مثلـي

أدرك الغرض الذى سعى إليه فى ميعة طموحه، فأخضع العرب والبربر، وأعاد إلى الملك عدلاً ونظامًا، ولكنه كسب كل هذا فخسر قلوب رعيته.

فوارحمتا لذلك الفتى الوسيم الذى دخل الأندلس بطلا مقدامًا ففاز بطاعة أهلها وإخلاصهم، ثم وارحمتا له وهو يدلف إلى قبره بعد اثنتين وثلاثين سنة، بغيضًا جبارًا، يحمى عرشه الملطخ بالدماء بسيوف المرتزقة الذين يبيعون إخلاصهم بالذهب، لقد حكم إسبانيا بالسيف، وعلى خلفائه أن يجروا على هذا السنن.

وقد رأى أكبر مؤرخ للأندلس: «أنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلا أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبى العرب والبربر، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف، لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظم».

ومهما يكن من شىء فإن استمرار ظلم كهذا يخلق جوًّا من الحزن واليأس على الرغم من بهجة الانتصارات التى تشع فى جوانبه.

وقد أعطانا ابن حيان - وهو مؤرخ قديم للأندلس - صورة لأمير قرطبة فقال:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور،

شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغًا مفوهًا، شاعرًا محسنًا، سمحًا سخيًّا، طلق اللسان. وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره، وكان قد أعطى هيبة من وليه وعـدوه، وكان يحضر الجنائز ويصلى عليها، ويصلى بالناس إذا كان حاضر الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم».

هذا هو بلا شـك عبد الرحمن الشـاب، قبـل أن تجعله المقاومة والدسائس قاسـيًا جافيًا كثير الفزع والشـكوك، وللقوة دائمًا طرق مروعة فى عقاب أصحابها.

وكلما مات ملك جبار تساءل الناس: من يخلفه؟ والجواب العام فـى مثل تلك الحال هو: ثورة وفوضى. إن العرش الذى يثبت على رءوس الحراب لا ينتقل فى سهولة من الأب إلى الولد، ومع هذا لم تسـقط دولة عبد الرحمن بموت مؤسسها المستبد، وكان من المتوقع أن تثـور القبائل المناجزة التى كبح جماحها بمشـقة وجهد بعد أن أطلقت من عقالها بموته، ولكن شـيئًا من ذلك لم يكن، لأن الرعب الذى غرسـه فى قلوبهم كان شديدًا، فلم يستطيعوا أن يتخلصوا من هوله، أو لأنهـم رأوا فى ولى عهده أميـرًا محبوبًا يتحلى بصفات تضاد صفات أبيه. فقد كان هشـام الذى تولى الملك بعده سـنة ٧٨٨ م / ١٧٢ هـ، وهو فى الثلاثين مـن عمره - مثالا لجميع الفضائل. وزاده ميـلا إلى عمل الخـير وبذل العناية فـى الإصلاح، ما تكهن لـه به أحد المنجمين مـن أن ما بقى من عمـره لا يزيد على ثمانى

سنوات، لذلك تفرغ الأمير فى هذه المدة القصيرة للاستعداد للدار الأخرى، وكان قصره فى أيام نشأته الأولى يموج بالعلماء والشعراء والحكماء، فأثرت فيه هذه النشأة، والولد كما يقولون أبو الوالد، وكان له من أعمال التقوى والصلاح ما لا يحصر عدًّا، ورأى فى حماه الغاضبون والمضطهدون معقلا وملاذًا، وكان يرسل من يثق به من الوعاظ والدعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعين بالمدن عسسًا لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد، وكان يعود المرضى، وكثيرًا ما كان يخرج فى الليالى العاصفة وهو يحمل الطعام لمريض من الزهاد، حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يراعيه ويرعاه، ثم هو مع كل هذا لم يكن جبانًا ولا زُميلا، بل كان يقود جيشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، كما يفعل العربى الصميم، ولقبه الناس بالشفيق وبالعادل لسهولة خليقته، ولكنه كان إذا جد الجد، وهددت ملكه مؤامرات أعمامه، ثابت العزم، قاسيًا لا يلين، وزاد فى عدد حرسه من المماليك، فكان يقف منهم على شاطئ النهر ألف فارس لحراسة قصره ليلا ونهارًا، وكان بارعًا فى الصيد، شديد التحرج من الشبهات، سمع بعد أن أعاد بناء قنطرة قرطبة الباقية إلى اليوم: أن الناس يهمسون بأنه إنما أقام هذا البناء العظيم ليسهل عليه الوصول إلى الصيد، فأقسم ألا يعبر القنطرة مرة أخرى، وقد

بر فى قسمه، وقبل أن تمر ثمانى السنوات اختاره الله إلى جواره تقيًّا نقيًّا[1].

وإذا نبت الشر من الخير فإن أعمال هذا الملك الخيرة كانت أكبر حافز على إثارة عامل جديد للثورة والعصيان بالأندلس، ونشأ هذا الخطر الجديد من السلطة التى وضعت فى أيدى الفقهاء والعلماء، وقد سميناهم بقساوسة الإسلام، وإن لم يكن هذا الاسم صحيحًا - لأن الإسلام لا يعرف هذه الطائفة بالمعنى الدقيق الذى تريده المسيحية الكاثوليكية، فليس المسلمون الذين يؤدون الصلاة فى المساجد، ويخطبون الناس يوم الجمعة إلا قومًا عاديين، يؤخذون من متاجرهم أو غيرها من الأعمال ويطلب إليهم فى أى وقت أن يؤموا المصلين، فالدين الإسلامى لا يفرق بين رجل الدين وغيره، على أن بالإسلام شيئًا يقرب قليلًا أو كثيرًا مما يقصد من معنى الكهنوت، فإن بالممالك الإسلامية دائمًا قومًا تجردوا للدين وخصصوا حياتهم به، قد يكونون دراويش لهم مذهب دينى خاص، أو طلاب شريعة وفقه، أو أتباعًا لإمام مشهور يتحمسون لمذهبه ويذودون دونه، وقد يكونون من حفظة القرآن الكريم أو شيوخًا يلقنون الناس العلم، نجد هذه الطائفة فى كل أقطار الإسلام، وهى طائفة يخشى جانبها فى كل مملكة، فطالما أظهر شيوخ الأزهر بالقاهرة وطائفة

(١) توفى سنة ١٨٠ هـ.

الصوفطة[1] بالقسطنطينية والمولوية فى كثير من مدن الشرق – ما للحماسة الدينية من الشأن فى أوقات الاضطراب. واليوم أخذت تظهر هذه النعرة بالأندلس خطيرة منذرة بالسوء.

وتأجج أول عصيان بعد موت عبد الرحمن من حيث لا يرتقب. لم يحدث من المسيحيين، ولم يحدث من قبائل العرب وعشائر البربر، وإنما حدث من أبناء الإسلام المخلصين ... حدث من فقهاء قرطبة. وكان معظم هؤلاء الفقهاء من المتسلمين أو أبنائهم، وقد ذكرنا آنفًا أن الإسبانيين أسلموا برغبة وحماسة فأصبحوا كشأن كل داخل فى دين جديد أكثر تعصبًا من المسلمين أنفسهم، وكان عبد الرحمن أبعد نظرًا وأكثر علمًا بالحياة من أن يسمح لهؤلاء الفقهاء – وبخاصة الإسبانيون منهم، بنفوذ له وزن أو قيمة، ولكن التقى هشامًا لم ير الخطر الذى كان يخشاه أبوه، ولو رآه ما عده خطرًا، فكان يميل إلى وضع ثقته فى رجال الدين المحافظين عليه، المتبعين طريقه، الذين لم ير فى أعمالهم بادرة ميل إلى الدنيا أو حب للظهور، وكان على رأس الفقهاء فى هذا الحين رجل عبقرى المواهب وافر العقل، كان تلميذًا لأحد أئمة المدينة المنورة[2]، وقد

(١) أصل الكلمة بالتركية سوختة ومعناها: المحترق، وتطلق، على المتصوف المحترق من وجده وشوقه إلى ثواب الآخرة.

(٢) هو الإمام مالك بن أنس.

تملك نفسه من الحماسة الدينية والطموح السياسى مزيج طالما جر الممالك إلى الخراب، هذا الشيخ هو يحيى بن يحيى الليثى[1] الذى رأى فى إخلاص هشام وتقواه فرصة لرفع الفقهاء بقرطبة إلى قمة من القوة والنفوذ لو علم بها عبد الرحمن الداهية لتفزز فى قبره. وكانت الأمور تسير سيرًا حسنًا ما نالت هذه الطائفة رغباتها، غير أنه فى سنة ٧٩٦ م / ١٨٠ هـ بعد أن انتقل هشام إلى رحمة ربه، طرأ على قصر الخلافة تغير عظيم. لم يكن الأمير الجديد«الحكم» قليل الاهتمام بالدين أو خليعًا مستهترًا، ولكنه كان مرحًا يحب الحياة ويتمتع بها كلما أقبلت عليه، ليس به صفة من صفات الزهد والتقشف، وكانت هذه الأخلاق وأشباهها بغيضة إلى المتزمتين، فانطلقوا يتحدثون بمثالب الأمير فى ذعر وإشفاق ويدعون له بالمغفرة والتوبة، ثم تجاوزوا الحد فسبوه فى وجهه وصبوا عليه اللعنات، ولما يئسوا من إصلاحه تآمروا على عزله، وإجلاس آخر من أسرته مكانه، ولكن المؤامرات خابت، وكان جزاء المتآمرين أن صلب الأمراء الذين اشتركوا فى المؤامرة وبعض الفقهاء المتعصبين، وقد كان يكون مثل هذا كافيًا لولا أن الفقهاء عادوا إلى الثورة، فعاد الأمير إلى إطفائها باستئصال مشعليها، ولكن القرطبيين لم

(١) يقال إن أصله من بربر مصمودة، رحل إلى الإمام مالك وأخذ عنه العلم، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث بالأندلس، مات سنة ٢٢٤ هـ.

يرعـووا بعد كل هذا، وبقيت مراجل الثورة تغلى فى قلوبهم، ولم يرعبهـم ما سمعوه مما أصاب زعماء طليطلة الذين أظهروا العصيان كعادتهم، والذين اسـتدرجهم ولى العهد بالحيلة والخديعة، حتى إذا قبض عليهم أفناهم ذبحًا وتقتيلا.

بقيت ذكرى يوم الخندق«الذى سميت به مذبحة طليطلة» كابحة جمـاح المتعصبين والمشـاغبين فى قرطبة سـبع سـنين، ولما نصلت ذكرى ذلك الخندق المخيـف الذى قذف فيه بجثث زعماء طليطلة، شـرعت الفتنة تطل برءوسـها فى قصبة الأندلس، ولم يزدد بغض الأهلـين للأمـير لأنه أبى أن يلبس الخشـن من الثيـاب، وأبى أن يتراءى بالزهـد والتقوى أمام أمته، بل كان يتجه هذا البغض أكثر ما يتجه إلى مماليك الأمير الذين كانوا يدعون«بالخرس» سموا بذلك لأنهم كانوا من الزنوج وأشـباههم الذين كانوا لا يستطيعون التكلم بالعربيـة، وكان هؤلاء الزنوج لا يجرؤون على السـير فى شـوارع المدينة إلا جماعات، لشـدة كراهية الناس لهم وتحفزهم لإيذائهم، وإذا خـرج جندى وحده كان عرضة للضـرب أو القتل، وحدث يومًا أن ضـرب أحد هؤلاء الجنود بعـضَ العامة فثارت ثورتهم جميعًا، وهجموا بقلـب رجل واحد على القصر، يقودهـم آلاف من الفقهاء الذين كانوا يسـكنون الربض الجنوبى لقرطبة، وصاح الشـر بينهم وطاشـت عقولهم وصممـوا علـى أن يقتحموا القصرعلـى الرغم من حصونه وحراسـه، فأطل الحكم من إحدى النوافذ فرأى بحرًا زاخرًا

من الوجوه، وأبصر والدهش يملأ نفسه شدة مكافحة العامة لهجمات فرسانه، ولكنه لم يفقد هدوءه فى هذه الساعة المحفوفة بالمخاطر، وتلك ميزة العظماء وشنشنة النسب الكريم، فعاد إلى بهوه، وأمر خادمه الخاص أن يحضر له قارورة الغالية، وأخذ فى تؤدة وثبات يضمخ رأسه ولحيته، ولم يستطع فتاه «يزنت» أن يكتم عجبه من فعل سيده وهو يسمع تهشيم الشعب المفترس للأبواب، فقال: أهذا وقت الغالية يا مولاى؟! ولكن الحكم قاطعه قائلا: اسكت أيها الغر، كيف تتصور أن يتعرف العصاة رأسى بين بقية الرءوس إذا لم يتميز بريحه العطرة؟! ثم نادى قواده وشرع فى اتخاذ الوسائل للدفاع، وكانت هذه الوسائل غاية فى السهولة وقوة الأثر، فقد أرسل ابن عم له مع بعض الفرسان من طريق خلفية إلى الربض، فأشعل فيه النار، فلما رآها المشاغبون غادروا القصر وأسرعوا فى ذعر وفزع لإنقاذ زوجاتهم وأطفالهم من اللهيب، فانقض الحكم وحراسه على مؤخرتهم، ووقع العصاة بين قوتين فحطموا تحطيما، وجال بينهم «الخرس» يقتلون بالمئات ولا يستجيبون إلى توسلاتهم وصياحهم المؤلم بطلب الرحمة، وانتهت الثورة بمذبحة عامة، ونجى الحكم بهذه الضربة القاصمة قصره وسلالته.

وكان الأمير كريمًا، فقبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره، ولم يجاوز به الحد، واكتفى بهدم دور العصاة بالربض ونفيهم، فرحل بعضهم إلى الإسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر ألفًا غير النساء

والأطفال، وبعد أن أقاموا بها قليلا أبحروا منها إلى إقريطش (كريت) ورحل ثمانية آلاف إلى «فاس» وكانت جمهرة هؤلاء المنفيين من أبناء الإسبانيين المتسلمين الذين كانوا يرحبون بكل فرصة يظهرون فيها بغضهم لحكم العرب، وترك الفقهاء وهم أس العصيان والثورة بلا عقاب، إما لأن كثيرًا منهم من أصل عربى، وإما لمنزلتهم الدينية، وقد جر أحد زعمائهم إلى القصر جرًّا، فصارح الحكم فى حدة غضبه وتعصبه بأنه ببغضه للأمير إنما يطيع أمر الله. فأجابه الحكم جوابه المأثور إذ قال: إن الذى أمرك - كما تزعم - ببغضى أمرنى بالعفو عنك. اذهب فى رعاية الله.